"الأقباط عنصر أساسى فى الأمة المصرية، لايمكن أن تقوم دراسة صحيحة عن مصر وشعبها دون دراسة للأقباط تاريخا ولغة وجنسا وأدبا وفنا "

لمثلث الرحمات المتنيح الأنبا يؤانس أسقف الغربية

ومساهمة منا فى نشر الوعى بالتاريخ القبطى فأننا نقتبس من كتاب

حضارة مصر فـــــى العصر القبطى

تأليف مراد كامل

خامسا : الحياة الإجتماعية

(هـ) الرهبنة

1 – قيامها فى مصر

المصرى بطبيعته يميل إلى التدين ، وتصبو صفوة المتدينين منهم إلى حياة روحية أعمق ، وأصفى سريرة ، وأكثر صلة بالله . حياة تتوق إلى الكمال والبر . ومن يصل به الحنين الروحى منهم إلى درجة الهيام بالله ، يسعى إلى التخلص من المشاغل العالمية والاهمتامات المادية ليتفرغ للخلوة والـتأمل .

استمال سحر صحراء مصر محبى الفضيلة والكمال إليها : فسماؤها الصافية المليئة بالنجوم تنطق بما وراءها من قوة مبدعة مترفقة ، وفضاؤها الشاسع يهىء فرص الحرية الطليقة ، وسكونها الشامل يساعد الإنسان على تركيز أفكاره ومشاعره ووجدانه فى الله وأن يخلو إليه ويخشع أمامه .

وهكذا اندفع المصريون المسيحيون إلى البرية لمغالبة الشر وللخلوة بالله . وكانوا يهدفون من ذلك إلى أن تسمو أرواحهم وتترهف نفوسهم فيستطيعوا التحكم فى الجسد وأهوائه ، والتحرر من مغريات العالم التى قد تستهوى الإنسان بعيداً عن خالقه ، وتطمس القبس الإلهى الكائن داخله .

ورغم ظهور بعض الحركات التصوفية قبل المسيحية كجماعات فقراء الهنود والإسينين اليهود ، إلا أن الرهبنة المصرية كانت اتجاهاً مسيحياً أصيلاً ، غير متأثر بتلك الحركات النسكية السابقة عليها لإختلافها عنها فى الهدف والفلسفة والأسلوب . كما أن الرهبان الأول الذين أسسوا هذا الطريق لم تكن ظروفهم البيئية أو العلمية مما يمكنهم من الاطلاع أو السماع عن هذه الحركات حتى يقلدوها . بل خرجوا إلى الصحارى بدافع من الروحانية والزهد كما توحى بهما الديانة المسيحية . ويظهر ذلك بوضوح من حياة القديس أنطونيوس.

ومع انتشار المسيحية فى مصر بدأت مظاهر النسك تنتشر رويداً رويداً . فقد سمع عن شخص يدعى فرونتونيوس (138 – 161 م) رحل إلى برية نيتريا (وادى النطرون) وفى صحبته سبعون مسيحياً ليعيشوا حياة الرهبنة والزهد .

وأغلب الظن أن الأمثلة المجهولة لهؤلاء النساك الأول أكثر من المعروفة . فأصول الرهبنة فى مصر بعيدة الغور وتاريخها أقدم من تاريخ القديس أنطونيوس . ولم تكن فى بداياتها قد أخذت بعد صبغة عامة منظمة . وإنما أخذت وضعها الثابت المعروف وصبغتها العالمية الواسعة النطاق ابتداء من الأنبا أنطونيوس .

أطوار الرهبنة :

مرت الرهبنة المصرية فى أطوار مختلفة :

1 – التوحد :

كانت الرهبنة الأنطونية فى عهدها الأول تنطوى على العزلة الفردية التامة المقرونة بالتقشف الشديد . ولما كثر أتباع أنطونيوس أخذ نظام العزلة يتطور تطوراً بطيئاً إلى نوع متوسط من الرهبنة الإجتماعية .

القديس أنطونيوس (250 – 356 م)

هو القديس العظيم الذى يلقبونه " أب جميع الرهبان " . ولد من أسرة غنية فى الصعيد . ولما توفى والده تاركاً له ثروة كبيرة تأثر بما جاء فى الإنجيل " إذا اردت أن تكون كاملاً فاذهب بع كل ما لك وأعطه للفقراء وتعال فاتبعنى " . فنفذ الآية حرفياً ووزع ثروته وتوحد فى الصحراء وسكن أولاً فى مقبرة قديمة ثم توغل داخل القفر . وعاش حوالى عشرين سنة لا يرى وجه إنسان وهو فى نسك وصوم وصلاة وتأمل . ولما أشتهر أمره واجتمع حوله كثيرون يطلبون منه أن يرشدهم إلى المعيشة مثله ،

خرج إليهم وأرشدهم إلى حياه الوحدة . وكان تلاميذه لا يعيشون فى أديرة بل فى مغارات منفردة فى الجبل . وقد تتلمذ عليه القديس إيلارى مؤسس الرهبنة فى فلسطين ، والقديسان آمون ومقاريوس مؤسسا الرهبنة فى وادى النطرون ، والقديس ببنودة أب أديرة الفيوم . كما تتلمذ عليه البطريرك اثناسيوس وكثير من مؤسسى الرهبنة .

ومنحه الله مواهب كثيرة منها شفاء المرضى . وسمع به الفلاسفة فأتوا إليه يحاورونه ليروا مدى علمه فأذهلتهم حكمته على الرغم من أنه كان فى عرف الكبرياء الرومانية أميا لعدم دراسته اليونانية واللاتينية .

ولما حل بالكنيسة اضطهاد مكسيميانوس نزل أنطونيوس إلى الإسكندرية يخدم المستشهدين ويقويهم مشتهياً هو نفسه أن يستشهد . كما نزل إبان هرطقة أريوس يحذر الناس منها ، وكان لظهور هذا الشيخ الناسك المتوحد أثره الكبير فى تأييد البطريرك أثناسيوس .

وقد أرسل إليه الإمبراطور قسطنطين وأولاده رسائل يطلبون فيها بركته فلم يرد عليهم إلا بعد إلحاح رهبانه الذين قال لهم " لا تتعجبوا إن كتب إلينا إمبراطور فهو إنسان . ولكن الأعجب من ذلك أن الله كتب الشريعة للإنسان " .

2 – الرهبنة الإجتماعية

أخذ الرهبان المتوحدون فى تركيز صفوفهم حول الشخصيات الكبرى من الآباء الروحيين ليتتلمذوا على أب روحى اشتهر بالقداسة والعلم . مع احتفاظ كل منهم بحياة التوحد فى مغارته أو قلايته المنعزلة عن جاره ، ولكن قلاليهم كانت قريبة بعض القرب من بعضها وتقوم حول قلاية الأب الروحى . لذلك يسمى هذا النظام أيضاً بنظام القلالى . وهو مرحلة متوسطة بين الرهبنة الأنطونية والرهبنة الديرية . وقاد هذا النظام القديس مقاريوس الكبير ، وكان مركزه برية شهيت . أى وادى النطرون بالصحراء الغربية.

القديس مقاريوس :

هو مؤسس الرهبنة فى وادى النطرون فى صحراء مصر الغربية . ولد سنة 300 م من أبوين مصريين فى إحدى قرى محافظة المنوفية . وكان أبوه كاهناً . وقد رسم هو أيضاً قساً ولكنه لم يشأ أن يتقلد هذه الرتبة لحبه فى حياة الوحدة . فبعد وفاة والديه وزع أمواله على الفقراء وذهب إلى وادى النطرون سنة 330 م حيث توحد هناك . ثم زار الأنبا أنطونيوس فى الجبل الشرقى فألبسه الزى الرهبانى وزوده

بنصائحه ورجع إلى وادى النطرون حيث تفرغ للعبادة والتأمل . ولم يكن هناك غيره فى كل تلك البرية . وقد عاش الأب مقاريوس ستين سنة فى الرهبنة وتجمع حوله تلاميذ كثيرون ، فبنى لهم كنيستين فى الموضع الحالى لديرى البرموس وأنبا مقاريوس بوادى النطرون . ومن أشهر تلاميذه أرسانيوس والأميران مكسيموس ودومايوس .

والمدرسة الرهبانية التى تزعمها مقاريوس هى نظام متوسط بين الوحدة المطلقة التى تظهر فى رهبنة أنطونيوس . والحياة المشتركة التى تمثلها رهبنة باخوميوس . فكان الرهبان يعيشون فى قلالى منفردة متباعدة ولكنهم يجتمعون مرة فى كل سبت ليشتركوا معاً فى الصلاة وتناول الأسرار المقدسة . ولم تكن لهم أسوار أو حصون . ولكن هذا النظام تدرج فيما بعد حتى شابه النظام الباخومى . أما من ثبت من أتباع هذا النظام على حب الوحدة فإنهم انفصلوا منفردين فى مغارات حفروها فى الجبال . وفى سنة 390 توفى الأب مقاريوس بعد أن عمر وادى النطرون بآلاف الرهبان . وانقسمت هذه البرية إلى أقسام مشهورة هى نتريا والأسقيط والقلالى ، وأصبحت البرية كلها معمورة معروفة .

3 – الرهبنة الديرية (حياة الشركة) :

ووضع القديس باخوميوس (290 – 348 م) مجموعة قوانين يعيش بمقتضاها الرهبان فى دير واحد ، هو عبارة عن كنيسة أو كنائس الدير ، تحيط بها قلالى الرهبان داخل سور واحد .

وتقوم الرهبنة على ثلاث دعائم : الفقر الإختيارى ـ العفة والتبتل ـ الطاعة للمرشد الروحى . وهى مقومات إنكار الشهوات الدنيوية والماديات والتفرغ للحياة الروحية .

وكان يشترط على من يريد الإنضمام إلى الدير أن يقضى ثلاث سنوات تحت الإختبار . وكان الطعام يقدم للرهبان فى قاعة المائدة مرتين كل يوم (فى الظهر وفى المساء) وكان يستمعون أثناء الأكل لأحد الأخوة يقرأ فصلاً من الكتب المقدسة . وكانت الأعمال اليدوية فى المؤسسات الباخومية إجبارية لفوائدها الروحية التى تشغل الراهب عن الشرود فى أفكار لا توافقه . كما أنها وسيلة لكسب القوت الضرورى لكى لا يكون الراهب عالة على المجتمع . وكان كل راهب يعمل فى المهنة التى يتقنها بجانب من تخصصوا فى كتابة الكتب ونسخ المخطوطات .

وكان النظام الباخومى يهتم بالعلم ، ولهذا نظم باخوم للرهبان ثلاثة دروس يومية عند الساعات الأولى والثالثة والسادسة من النهار للمبتدئين . ودروساً آخرى

عامة يعقدها رؤساء الأديرة يومى الأربعاء والجمعة فى تفسير الكتب المقدسة . وكان حضورها إجبارياً .

وكانت الأديرة الباخومية مثلاً أعلى فى النظام والحياة الراضية والسلام فى وسط عالم منهار ملأه الفزع والفوضى ، وشمله القنوط والدمار . لذلك كان من الطبيعى أن يهرع إليها الناس بالمئات والآلاف فى عصر سادته الروح الدينية .

الأنبا باخوميوس :

ولد حوالى سنة 290 م فى إحدى قرى الصعيد من أبوين وثنيين . والتحق فى شبابه بجيش قسطنطين فى حربه لمكسيميانوس . وحدث أن عسكرت فرقته فى ضواحى إسنا فخرج أهالى البلدة من المسيحيين يحملون إليهم الطعام والشراب . فذهب باخوميوس وتساءل عما حدا بهؤلاء الناس إلى إبداء هذا العطف ، فقيل له أنهم مسيحيون ينفذون تعاليم دينهم . فقال فى نفسه " إن كانت هذه هى المسيحية فإننى ـ إن عدت سالماً ـ سأصير مسيحياً " . ولما انتصر قسطنطين وسرح الجيش عكف باخوميوس على دراسة المسيحية واعتنقها .

ثم تتلمذ على راهب شيخ يدعى بلامون ، وازداد فى النسك والمعرفة حتى صار أباً لكثيرين ، وأسس ديره الأول فى طيبة واستخدم فى تدبيره ما اعتاده من نظام العسكرية ومن طاعة ونسك فى الرهبنة . وكثر عدد المنضمين إليه حتى لم يسعهم الدير ، فأنشأ أديرة أخرى وصل عددها إلى تسعة ، كما أنشأ ديراً للراهبات تحت رئاسة أخته . وقد ذكر " بلاديوس " أن رهبان باخوميوس بلغوا ثلاثة آلاف فى حياته وأنهم بلغوا سنة 420 م سبعة آلاف ، وقدرهم " كاسيان " بخمسة آلاف راهب ، وكانت أديرته تضم غير الأقباط رهباناً من اليونان والرومان والأحباش والسريان . وكان كل هذا العدد الضخم تحت إدارة حكيمة حازمة . وضع لهم باخوميوس قوانين فى العبادة والعمل اليدوى والملبس والمسكن والمأكل وما يلزمهم فى معيشتهم الديرية . واشترط فى طالب الرهبنة إن لم يكن يعرف القراءة والكتابة أن يتعلمهما قبل رهبنته ليتمكن من قراءة الكتاب المقدس وكتب الآباء ، ووضع للرهبان نظاماً فى الدراسة . وهكذا لم تساعد أديرته على محو الأمية فحسب ، بل كانت معاهد للتثقيف . وقد انتشرت قوانين باخوميوس فى أرجاء العالم . ويعتبر هذا القديس مؤسس الحياة الديرية فى الرهبنة المسيحية ، كما يعتبر أنطونيوس مؤسس نظام التوحد فيها .

4 ـ نظام الأنبا شنوده : (333 – 451 م)

بالديرين الأبيض والأحمر بالقرب من سوهاج وأخميم . أدخل الأنبا شنوده تعديلات على نظام الشركة الباخومى تصطبغ بالشدة والنظام .

نشأ الأنبا شنوده فى الصعيد من أسرة غنية . وكان فى صغره يخرج مع رعاة غنم أبيه فيعطيهم طعامه ويقضى اليوم كله صائماً ، كما كان ينفرد أثناء رجوعه عن الرعاة ويقف للصلاة . ولما تنبه والده إلى ذلك دفع به إلى خاله " بيجول " الذى كان رئيساً للدير الأبيض من سنة 350 م فرسمه راهباً . وظل شنوده الصبى يرتفع فى درجات العبادة ، ويكثر من الدراسة والتأمل ، ويتدرب على الوحدة والطاعة والتواضع حتى أحبه الرهبان جميعاً . وبعد وفاة خاله انتخبوه رئيساً للدير سنة 383 م ودامت رئاسته للدير 66 عاماً حتى توفى سنة 451 م ، وقد قارب المائة والعشرين من العمر .

وقد كثر عدد رهبانه حتى صاروا حوالى خمسة آلاف ، وكان أيضاً أباً لألف وثمانمائة راهبة . وقد كتب لهؤلاء الراهبات عدداً وفيراً من الرسائل تتبين منها تفكيره السليم وتعمقه فى الروحيات . واهتم بتثقيف رهبانه حتى صاروا من أكثر الرهبان معرفة . ووضع لهم قوانين وأنظمة أكثر شدة من قوانين القديس باخوميوس .

ولكنه كان فى زعامته الشعبية يختلف عن باخوميوس فى أمرين : فبينما ضمت أديرة باخوميوس أجناساً كثيرة اقتصر هو فى أديرته على الأقباط . وبذلك أصبحت أديرته معاقل مصرية صميمة . وبينما كانت كنائس باخوميوس خاصة بالرهبان فقط ، فتح هو كنيسة الدير الأبيض للشعب يأتون إليه فى الآحاد والأعياد فيعظهم ويرشدهم . وكان الأنبا شنوده محباً لشعبه يقاسمهم أتعابهم كفلاحين يرزحون تحت نير مضطهديهم من الرومان ، فهاجم ظلم كبار الحكام والملاك ودعا للرفق بالفقراء .

وقد كان نشاطه محصوراً فى محاربة الوثنية واقتلاع جذور خرافاتها من الكنيسة مثل السحر والتعاويذ والدجل الطبى وبدع الموالد . كما سافر مع القديس كيرلس إلى أفسوس واشترك معه فى محاربة هرطقة نسطور .

ويعتبر الأنبا شنوده أعظم كتاب الأدب القبطى . فقد كانت بلاغته الكتابية وفصاحته الخطابية من أظهر مواهبه . وكانت كتاباته عملية صالحة للاستعمال المباشر . وكان كثير الإنتاج مالكاً لناصية اللغة . وقد خلّف لنا فى جهاده الدينى والقومى الطويل تراثاً أدبياً ضخماً باللهجة الصعيدية التى لم يكتب أو يخطب إلا بها .

وما أن وصلت الرهبنة إلى هذه الأطوار والأنواع المتعددة حتى كانت الصحارى المصرية وبقاع كثيرة من الوجه القبلى على الأخص ، قد امتلأت بالأديرة وقلالى النساك . وامتلأت بالرهبان والمتوحدين حتى أنه قيل أن المسافر من الإسكندرية إلى أسوان فى القرنين الخامس والسادس لم يكن فى حاجة إلى أن يحمل

زاداً للطريق ، إذ يستطيع أن يتزود باحتياجات الرحلة من الأديرة والقلالى المنتشرة بكثرة على أطراف وادى النيل وصحراواته الشرقية والغربية .

ومن أهم المناطق التى تركزت فيها جماعات الرهبان :

1 – منطقة بسبير فى الصعيد الأوسط .

2 – منطقة جبل نتريا أو وادى النطرون بالصحراء الغربية وكانت تنقسم إلى ثلاثة مراكز رهبانية :
(أ) نتريا .
(ب) الأسقيط .
(جـ) القلالى .

3 – منطقة مريوط على الساحل الشمالى غربى الإسكندرية .

4 ـ منطقة البهنسا وهى بالقرب من بنى سويف الحالية وكانت تعرف فى العصر الرومانى اسم أوكسيرنخوس .

5 ـ منطقة أنتينوى بالقرب من ملوى .

6 ـ منطقة ليكوس بالقرب من أسيوط .

7 ـ منطقة سوهاج وأخميم (بانوبوليس) حيث أديرة الأنبا شنوده .

8 ـ منطقة طيبة وهى منطقة واسعة فى مديرية قنا حيث انتشرت أديرة باخوميوس .

ولم يبق من هذا العدد الضخم من الأديرة ، فى وقتنا الحاضر سوى ثمانية أديرة قبطية مأهولة بالرهبان ، والباقى منها أطلال متروكة يؤمها الشعب فى الأعياد لإقامة القداسات ، منها أربعة فى وادى النطرون وهى : أديرة البراموس ـ السريان ـ الأنبا بيشوى ـ وأبو مقار ، وفى جنوب صحراء الفيوم : دير الأنبا صموئيل (القلمونى) ، وفى جنوبه بالقرب من ديروط : الدير المحرق ، أما فى الصحراء الشرقية فيوجد دير الأنبا أنطونيوس ودير الأنبا بولا . ولليونان الأرثوذكس دير سانت كاترين بالقرب من الطور فى شبه جزيرة سيناء .

وبمدينة القاهرة توجد خمسة أديرة للراهبات فى مصر القديمة ، وحارة زويلة ، وحارة الروم .

آثار الرهبنة :

1 - التربوية :

عندما أدت الاضطهادات والاضطرابات المتوالية إلى ضعف مدرسة الإسكندرية اللاهوتية فى نهاية القرن السادس ، انتقلت القوى التربوية فى القطر المصرى من الإسكندرية إلى الصحراء ، فصارت الأديرة مركزاً تربوياً عظيماً لعلوم الكنيسة .

وقد اعتبرت الأديرة مخازن كنوز العلوم والمعرفة سواء منها الدينية أو المدنية . وهى التى قادت الحركة التربوية فى مصر خلال القرون الوسطى . فبجانب البحوث والدراسات التى تركزت داخل الأديرة ، فقد عهد أيضاً إلى عدد من الرهبان فى إنشاء مدارس أولية (كتاتيب) فى قرى وادى النيل لتعليم أبناء الأقباط .

إن الجو الشاعرى الذى يحيط بالأديرة ، والهدوء الشامل الذى يعيش فيه الرهبان هيأ لهم فرص التأليف والكتابة وبخاصة فى العلوم اللاهوتية ، وتفسير الكتب المقدسة إلى جانب الخبرات النسكية والروحية التى تعتبر من أعمق الدراسات النفسية .

وكان بكل دير مدرسة لنسخ المخطوطات بجانب جماعات النساخ التى عملت على نشر التراث الثقافى والدينى فى وقت لم تكن الطباعة قد عرفت فيه .

ويجمل " هرناك " آثار الرهبنة العلمية فى عبارة واحدة قائلاً " إن الفن والشعر والعلوم قد وجدت فى الرهبنة ، فمبادىء حضارتنا تعتبر فصلاً من تاريخ الرهبنة " .

2 – الاجتماعية :

كان للرهبنة آثار اجتماعية عميقة الغور فى نفوس الناس . تأثر بها المجتمع القبطى ، فسادته موجة من الزهد والتقشف وأخذ يقتدى بالرهبان وينقل عنهم كثيراً من عاداتهم وأصوامهم . ولما اشتهرت فضائل الرهبان ، وذاع صيتها ، اختار الشعب قادته الروحيين من الرهبان ، وكانوا فى العصور الأولى يحملونهم قسراً إلى المدن لتولى مناصب الأسقفية والبطريركية . ومن ذلك الحين كثرت الانطباعات الرهبانية فى حياة المجتمع القبطى .

إن النماذج الحية للفضيلة والتقوى وإنكار الذات التى تألقت فى حياة أولئك الرهبان المصريين كانت أعظم دليل على أن الفضيلة ، ووصايا الدين ، أمور واقعية يمكن الوصول إليها ، وليس مجرد مثل عليا ، أو مبادىء نظرية يتخيلها الدين ، الأمر الذى ينصر قوى الخير فى المجتمع على قوى الشر ، فلا يبتلع اليأس الكثيرين فى موجات الإنحلال والمادية والإلحاد . بل تشجع تلك النماذج الحية على استمرار الجهاد فى سبيل الفضيلة تشبهاً بهؤلاء العباد . ولعل هذا مما حفظ للمجتمع المصرى طابعه الدينى على مر العصور .

ثمة ظاهرة اجتماعية أخرى . فالمرضى والرازحون تحت آلام الحياة وأعبائها يلتمسون التعزية والمشاركة والطمأنينة من أناس عمرت قلوبهم بالإيمان ، وغمر السلام نفوسهم . لذلك كان الشعب يلجأ إلى الرهبان يلتمس منهم تخفيف آلامه بصلواتهم وتعزياتهم وإرشاداتهم وبقدوتهم التى كان لها أكبر الأثر فى تجديد الرجاء لمن يقصدونهم . كما كانت الأديرة أشبه بميناء السلام فى أوقات الأوبئة والحروب والمجاعات ، إذ يجد اللاجئون إليها الأمن والدواء والطعام .

وعن ذلك قال " هرناك " المؤرخ الألمانى " إن النساك المصريين كانوا يعتبرون فى جميع العصور ـ حتى فى نظر الغرب ـ آباء ، ونماذج للحياة المسيحية الحقيقية " .

2 ـ إنتشارها فى إنحاء العالم المسيحى :

نشأت الرهبنة فى مصر ففاح عبير الآباء المصريين فى أرجاء العالم ، حتى شمله عبيرهم ، واجتذب إلى مصر جميع الذين طرق قلوبهم صوت الله ، فجاءوا إلى هذا الوادى ليرتووا من نبع تعاليمهم الصافية وليقتدوا بسيرتهم العطرة .

فوفدت إلى الصحارى المصرية جماعات من الفلسطينيين والسريان والحبش واليونان والأرمن واللاتين ، وسكان شمال أفريقية وغيرهم . وكان لكل أسرة معلم من جنسها يقوى على التفاهم مع أبناء جنسه وإرشادهم . وهذا النظام هو الذى ورثته الجامعات فى العصور الوسطى حيث انتشر فى رحباتها نظام الأمم ، وأيضاً نظام الأروقة فى الجامعة الأزهرية .

وتعتبر تعاليم الآباء المصريين من اكبر المفاخر التى جادت بها القرائح المصرية على العالم المتمدين .

1 – فى الشرق :

فمن فلسطين جاء القديس " إيلارى " الكبير (هيلاريون) فدرس الفلسفة فى مدرسة الإسكندرية ثم تتلمذ للقديس أنطونيوس . فلما رجع إلى فلسطين أسس الأديرة على النمط المصرى مستعيناً ببعض الرهبان المصريين . وقد أبتدأ فى برارى غزة ومنها انتشرت الرهبنة إلى المنطقة المحيطة بالأردن .

وفى أواخر القرن الرابع جاء " بلاديوس " وزار مصر للمرة الأولى من سنة 388 إلى سنة 399 حيث عاش مع رهبان ، برية شهيت لدراسة الحياة النسكية ثم عاد إلى بيت لحم ، ثم إلى أورشليم ورسم أسقفاً لهلينوبوليس سنة 400 م .

ولما رجع من زيارته الثانية لمصر ، كتب حوالى سنة 420 م تاريخاً عما رآه وسمعه من رهبان الأسقيط ، اشتهر باسم "بستان الرهبان " وكان هذا الكتاب سبباً لانتشار الرهبنة فى جهات كثيرة من العالم .

ومن الذين أسسوا أديرة الموصل وطور عبدين ونصيبين ، رهبان مصريون يبلغ عددهم حوالى السبعين ذهبوا من مصر مع راهب سريانى إسمه مارآيون (القديس أوجين) كان قد عاش فى الأديرة القبطية بالصعيد .

وانتشرت المسيحية فى بقاع كثيرة من الشرق على أيدى المبشرين المصريين ، غذتها مصر بمعلمين من مدرسة الإسكندرية اللاهوتية ثم والت الكنيسة القبطية العناية بها على أيدى الرهبان المصريين ، فكانوا هم الذين تولوا تنظيم الكنائس والأديرة وتوسعوا فى نشر المسيحية .

فقد نشروا المسيحية فى ليبيا والخمس المدن الغربية (بنتابوليس) . ويذكر يوسابيوس المؤرخ إسم باسيليوس أحد أساقفتها فى أيام ديونسيوس الإسكندرى . ويستنتج " هرناك " من ذلك ومن وجود عدد من الإبرشيات فيها أن الكنيسة هناك كانت فى حالة منظمة فى منتصف القرن الثالث .

ويذكر أوسابيوس القيصرى تبشير بنتينوس فى الهند . ويظهر أن العلاقة بين الكنيسة المصرية والهند قد استمرت طويلاً ، إذ يذكر كتاب تاريخ البطاركة مجىء كاهن هندى إلى مصر فى أيام البطريرك سمعان الأول فى أواخر القرن السابع يطلب منه سيامة أسقف للهند .

أما عن بلاد العرب فإن هرناك يستند إلى أوسابيوس فى تأكيد زيارة أوريجانوس للبلاد العربية وقيادته لمجمع فى بصرى .

أما عن الحبشة ، فقد دخلت إليها المسيحية على يد فرومنتيوس فى منتصف القرن الرابع الميلادى . وهو مصرى كان يتاجر فى صور ويجوب البحار شمالاً وجنوباً . والاسم فرومنتيوس لفظ قبطى معناه رجل الله (افرومى ـ أنت ـ تيوس) .

وقد اعتنق المسيحية أولاً ملك الحبشة وتبعه فى ذلك رجال البلاط . ثم أخذت المسيحية تنتشر بين أفراد الشعب . وكان دخول المسيحية الحبشة على هذه الصورة مخالفاً لما عهدناه فى البلاد الأخرى حيث كانت تجد طريقها إلى الشعب أولاً ثم يعتنقها رجال البلاط فالملك .

ولما عاد فرومنتيوس إلى مصر ، طلب من الأنبا أثناسيوس بطريرك الإسكندرية أن يرسل أسقفاً لرعاية المسيحيين فى أثيوبيا ، وبعد أن تشاور أثناسيوس مع مجمع الأساقفة الأقباط قرروا سيامة فرومنتيوس نفسه وأرسلوه إلى أكسوم عاصمة الحبشة فى ذلك الوقت .

وربما كان لقرارات مجمع خلقدونيا سنة 451 التى رفضها القائلون بالطبيعة الواحدة أثر فى هجرة كثير من الرهبان إلى مصر حيث وجدوا فى أديرتها المزدهرة ملجأ لهم ، ومنهم من أخذ فى الانتقال إلى النوبة ومنها إلى الحبشة ، تدفعهم غيرتهم على نشر الدين المسيحى بحسب مذهبهم ، بين أقوام لم يتطرق الجدل الدينى إليهم ، وقد حدا بهم خوفهم من المذهب النسطورى الذى لم يكن له أتباع فى مصر أو الحبشة ، إلى ترجمة بعض الكتب فى معارضة النسطورية مثل كتاب كيرلس استعداداً للطوارىء.

وكان بين الرهبان الذين وفدوا إلى الحبشة واستقروا فى أماكن متعددة من مقاطعة التيجرى تسعة عرفوا " بالقديسين التسعة " هم رسل نشر المسيحية فى الحبشة الذين أسسوا الأديرة وثبتوا العقيدة .

وقد أخذت الأديرة فى الحبشة تزدهر فى القرنين السادس والسابع ، وأخذ الرهبان يتفرغون إلى دراسة الرهبنة وتفهمها معتمدين فى ذلك على ما يترجمونه من الكتب القبطية أو اليونانية الشائعة عند الرهبان الأقباط فى مصر .

ومنذ القرن الرابع والكنيسة المصرية ترسل مطراناً قبطياً كرئيس للكنيسة الأثيوبية ، وكان له فيها مكانة ممتازة .

في السودان :

ذكر المؤرخ يوحنا الأفسسى إنه فى القرن السادس كان البطريرك القبطى ثيودوسيوس منفياً فى القسطنطينية . وفى هذه الأثناء أرسل يوليانوس إلى النوبة لتبشيرها بالمسيحية وذلك بمساعدة الإمبراطورة تيودورة التى كانت تؤمن بمذهب الكنيسة المصرية ، على عكس زوجها الإمبراطور يوستنيانوس الذى كان شديد الاضطهاد لهذا المذهب . فوصل يوليانوس إلى النوبة حوالى 543 م وبشرها بالمسيحية فرحب به الملك والعظماء فعمدهم وعلمهم الكثير عن المسيحية وحذرهم من أخطاء مذهب حزب الإمبراطور ، فلما وصلت بعثة الإمبراطور بعد ذلك لم يقبل ملك النوبة رسالتها ورفض بقاءها فى النوبة ، فعادت فاشلة .

وتوالت بعد ذلك البعثات التبشيرية قادمة من الكنيسة القبطية . وكان أشهر المبشرين الأقباط لونجينوس الذى خاطر بحياته وسار فى رحلة طويلة مع الجبال المحاذية للبحر الأحمر حتى وصل إلى مملكة علوة (عند ملتقى أنهار العطبرة والنيل الأزرق والنيل الأبيض وعاصمتها سوبا قرب الخرطوم الحالية) فبشرها بالمسيحية فآمنت بمذهب الكنيسة القبطية ، وقد حاول الإمبراطور أن يجرهم إلى مذهبه بالقوة فلم يتبعوه .

وقد ظلت الكنيسة المصرية ترسل أساقفة وكهنة إلى النوبة وعلوة وكذلك إلى مملكة أخرى تتوسطها اسمها ماكرة (مقره) اتحدت فى القرن السابع مع النوبة وصارت مملكة واحدة عاصمتها دنقلة القديمة .

واستمرت المسيحية فى النوبة تابعة لكنيسة مصر حتى نهاية حكم المماليك .

(ب) فى الغرب :

واتسع أثر الآباء المصريين بفضل الكتاب الذى وضعه أثناسيوس الرسولى بطريرك الإسكندرية فى القرن الرابع عن سيرة الأنبا أنطونيوس وكانت نسخة من هذه السيرة سبباً فى تجديد حياة القديس أوغسطينوس (أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس) أسقف مدينة هبو بشمال أفريقية ، وهو يعد من أكبر فلاسفة الكنيسة الغربية . ومن ناحية أخرى حمل أثناسيوس التعاليم الباخومية إلى أوروبا الغربية فى رحلتين .

وجاء القديس باسيليوس الكبير (القرن الرابع) ـ وهو يونانى ـ إلى مصر وعاش عدة سنين فى أديرة باخوميوس بالصعيد ونقل نظامها ، واسترشد بقوانينها فى الأديرة التى أسسها بجل آتوس فى بلاد اليونان .

وفى سنة 404 م قام القديس جيروم (هيرونيموس الإيطالى) بترجمة قوانين باخوميوس إلى اللاتينية ، فبادر الرهبان الإيطاليون إلى اتخاذها دستوراً لهم .

وبعد ذلك بسنوات قليلة كتب كاسيانوس (الراهب الفرنسى) تراجم الآباء المصريين وتعاليمهم والقوانين التى وضعوها ، وحاول جهده أن يطبق هذه القوانين الرهبانية المصرية على الديرين اللذين أنشأهما فى جنوب فرنسا (بالقرب من مرسيليا) . ثم إن نظام الديرية البندكتية (نسبة إلى القديس بندكت أى المبارك) مقتبس من نظام وقوانين باخوميوس . وعن طريق البندكتية انتشرت النظم الباخومية فى أوروبا انتشاراً واسعاً .

كما أثرت تعاليم باخوميوس فى حركة الإصلاح الكلونى ، تلك الحركة الكبرى التى كان لها أثرها الدائم فى توجيه المدنية فى العصور الوسطى . كما تلتها الجماعات الرهبانية المعروفة بالديوية، وذلك فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر . وتبعتها فى عهد لاحق جماعات الفرنسيسكان (نسبة للقديس فرانسيس الأسيسى) والدومينكان . فليس من العبث ، القول بأن تلك السلسلة من أولها لآخرها يمكن اقتفاء أصولها ومنابعها فى وحى باخوميوس المصرى . وبالتالى فإن النهضة الأدبية الفكرية الأولى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، تلك النهضة التى تقترن بقيام العلوم الإنسانية ونشأة الجامعات فى العصور الوسطى إنما هى اثر من آثار تلك الهيئات الديرية التى يرجع تكوينها فى الأصل إلى عبقرية باخوميوس .

وقد وصل الرهبان والمبشرون الأقباط إلى سواحل فرنسا الجنوبية ، وإلى بلجيكا حيث يصف " هرناك " كيف عمل الأنبا اثناسيوس وهو فى منفاه فى بلجيكا على نشر المسيحية وتأسيس كنيسة ناهضة هناك . وفى سويسرا فى مدينة زيورخ اشتهر شهداء أقباط ضمن الذين بشروا المدينة كما اشتهر فى سويسرا القديس موريقى (موريس) وأخته وارينا ، وهى التى وجهت اهتمام السويسريات إلى العناية بنظافتهن ، وما زالت تصور هناك حاملة مشطاً (فلاية) وإبريق ماء .

وفى ألمانيا استشهد سنة 268 م حوالى ثلاثة آلاف من أبناء مصر العليا من فرقة طيبة ، ولا تزال قبورهم معروفة فى مدينة " ترير "

وفى جزيرة قبرص أسس الرهبان الأقباط على الجبال الشمالية بالقرب من قرية بلاتان ديراً أطلقوا عليه اسم دير القديس مقاريوس وكان للأقباط هناك أسقف يمتد اختصاصه على قبرص ورودس ، كما ذكر " برمستر " فى بحث نشره بمجلة جمعية الآثار القبطية .

وذكر بتلر فى مقدمة كتابه " عن الكنائس القبطية القديمة " إن المبشرين الأقباط وصلوا إلى الجزر البريطانية وأنه يوجد إلى يومنا هذا ببلدة أوليدة ديزرت بايرلندة قبور سبعة من الرهبان المصريين لا تزال تذكر أسماؤهم فى الصلاة بكنيسة تلك الجهة .